
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

البحث في تاريخ النساء
تجربة الغرب نموذجا

ذ. محمد حبيدة

يمثل البحث في تاريخ النساء اليوم مجالا حيويا داخل الشبكة الاسطغرافية الغربية. لقد جذب إليه في العقود الأخيرة علوما اجتماعية متعددة : سوسيولوجيا، انثربولوجيا، علم النفس، وقطاعات تاريخية متداخلة : التاريخ الاجتماعي والديموغرافي، الانثربولوجيا التاريخية، تاريخ العقليات. هذه الحيوية حديثة العهد، فتاريخ النساء لم يكتسب مكانة بارزة في حقل التاريخ إلا منذ خمس وعشرين سنة. فقد تطلبت عملية إثبات الذات هاته مسارا يزيد عن قرن من الزمن، ذلك أن أولى الاهتمامات بهذا الموضوع تعود إلى القرن 19.

إن الإلمام بهذا المسار هو في الواقع إلمام بمجموعتين متداخلتين من التراكمات :

1 ـ الحركة النسائية.

2 ـ البحث العلمي.

ومن جهة أخرى تهدف هذه المساهمة إلى استعراض المقاربة المركزية التي تحوم حولها الدراسات التاريخية النسائية، وأيضا تحديد بعض المفاهيم والمقولات الأساسية المرتبطة بها.

1 ـ التراكمات.

ترتبط نشأة الاهتمام بتاريخ النساء بحقبة تاريخية غنية بالتحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. إنه القرن 19 الأوربي. فقد قدمت هذه التحولات تناقضا صريحا بين قانون قائم نظريا على أساس حرية الفرد والمساواة، ومن جهة أخرى تشريع استبدادي يقصي النساء من حق المواطنة[1]. تقول كريستيان كلابيش : «لقد شجعت الصراعات الاجتماعية والتيارات النسائية في نهاية القرن 19، وبداية الـ 20 على التفكير في مكانة النساء في التاريخ وقدمت إمكانية لتاريخ النساء»[2]. إنه جو سياسي واجتماعي امتزجت فيه مطالب الحركة العمالية بمطالب الحركة النسائية. هذا ما أوضحته بعض الدراسات الرائدة في الثلث الأول من هذا القرن. نذكر منها كتاب مارغاريث تيبار حول «الحركة النسائية في الاشتراكية الفرنسية 1830 ـ 1850» الصادر سنة 1926[3]، ودراسة بينشبيك التي ذهبت إلى رصد دور الثورة

الصناعية بانجلترا في خلق مجالات الشغل للنساء ومنحهن نوعا من الاستقلالية، وذلك منذ أواسط القرن 18[4].

في القرن 19 إذن نشأت الحركة النسائية[5]. لقد رمزت إلى أمرين أساسيين :

1 ـ تحولات بنيوية مهمة : عمل مأجور، استقلالية الفرد المدني، حق التعلم .

2 ـ الظهور الجماعي للنساء على الساحة السياسية[6].

استمرت الحركة النسائية بالمطالبة بالحقوق المدنية طيلة النصف الأول من القرن 20. وقد ساهمت الحربين العالميتين، الأولى والثانية، في تحقيق مكتسبات سياسية واجتماعية حاسمة : حصول الانجلوسكاسونيات والجرمانيات على حق التصويت بعد الحرب الأولى، والفرنسيات بعد الحرب الثانية.

وابتداء من الأربعينيات أخذت الحركة تفرض نفسها، وبقوة، على الساحة الفكرية والسياسية. ونسجل هنا ظهور مجموعة من الأبحاث ذات الطابع الفكري والنضالي، أبرزها كتاب سيمون دي بوفوار «الجنس الآخر» الصادر سنة 1949[7].

كان من نتائج هذه التراكمات "النسائية" في أوربا كما في الولايات المتحدة الأمريكية، الاهتمام بالتاريخ. فقد ظهرت لدى النساء المثقفات رغبة أكيدة «للتعرف على شروط حياتهم الماضية من أجل مواجهة أفضل لمشاكلهم الراهنة»[8]. إن البحث في تاريخ النساء يجسد كما تقول أرليت فارج ومشيل بيرو «دور التاريخ في الوساطة بين الحاضر والماضي»[9].

نوع آخر من التراكمات نلحظه في تطور الاسطغرافيا. في فرنسا مثلا كان لانفتاح الجيل الثالث لمدرسة الحوليات على الانثربولوجيا أثر بالغ على البحث التاريخي، يتمثل أساسا في التنبه إلى حقل جديد : تاريخ الحياة الخاصة. لكن البداية انطلقت مع ابتكار المؤرخين لاتجاه خلاق : البحث في الديموغرافيا التاريخية، وذلك بفضل توفر سلسلة من المصادر مثل السجلات الخورية، وتوظيف الأدوات المنهجية للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي. فكشفت دراسات عديدة على الهياكل الديموغرافية : الولادات، الوفيات، نسبة الزيجات، الخصوبة، الخ[10]. ثم إن الاحتكاك بالأبحاث الانثربولوجية التي قادها كلود ليفي ستراوس، وأيضا الاقتداء "المتأخر" ببحث تاريخي نموذجي ظل في الخلف سنوات عديدة وهو "تاريخ سكان فرنسا ومواقفهم إزاء الحياة" لفيليب أرياس والصادر سنة 1948[11]، جعلا مدرسة الحوليات «تقفز من ديموغرافيا تاريخية ذات طابع كمي إلى أنثربولوجيا تاريخية ذات مظهر كيفي»[12].

هكذا اتجه التنقيب التاريخي في السبعينيات نحو تاريخ العائلة، تاريخ صلات القرابة، تاريخ الجنس، وبالتالي تاريخ النساء. لقد تطور البحث في هذا القطاع خلال العقد المذكور على مستويين :

1 ـ **مستوى المؤسسة الجامعية**. في الولايات المتحد ة الأمريكية نشأت في مجموعة من الجامعات أقساما للدراسات النسائية، احتل فيها التاريخ مكانة مميزة[13]. في فرنسا أيضا نظم

أول درس حـول تاريخ النسـاء سنة 1973 بجامـعة باريس VII جوسيو تحت مسؤولية السيدة ميشيل بيرو[14].

2 ـ **مستوى الإنتاج العلمي**. فقد برزت أبحاثا رائدة في هذا الحقل. أهمها دراسات :

فلاندران حول "الغراميات الفلاحية، ق. 16 ـ 19" (1975)[15].

لوبران ؛الحياة الزوجية قبل الثورة الفرنسية" (1975)[16].

سولي، "الحب في الغرب خلال الأزمنة الحديثة"(1976)[17].

استمر هـذا التوجه المتنبه للسلوكات العائلية والجنسية في الثمانينيات على نحو خصب. نذكر هنا بالخصوص :

فلاندران، "الجنس والغرب، تطور المواقف والسلوكات" (1981)[18].

فوكو، "تاريخ الجنس"(1986)[19].

بورغيير وكلابيش، "تـاريخ العائلة"(1986)[20]. كل هذه الأعـمال ساهـمت في خلق تراكم أساسي للبحث في هذا الحقل، توجه مؤخرا، سنة 1990 ـ 1992 صدور عمل ضخم حول "تاريخ النسـاء في الغرب"، تحت إشـراف مؤرخين فرنسـيين، جورج دوبي وميشـيل بيرو. هذا الانتاج المكون من خمس مجلدات :

1) عـصـر قـديـم
2) عـصـر وسـيـط
3) القـرن 16 ـ 18
4) الـقـرن 19
5) الـقـرن 20

شارك فيه 72 باحثا، 60٪ منهم من فـرنسا و40٪ الباقيـة من مختلف الجنسيـات الغربية مع نسـبة مـهمـة للأمريكيين والإيطاليـين. ملاحظة إحـصائيـة أخرى : من مـجمـوع هذه الأرقـام نسـتخـرج 75٪ مـن النسـاء و25٪ مـن الرجـال. إنـه مـشروع نسائـي[21].

2 ـ المقاربات.

يقوم البـحث في تاريخ النسـاء على مقـاربة رئيسيـة. فهـو لا يهتم بالنسـاء بالمعنى الضيق للكلمة، بل بإشكالية العلاقة بين الجنسين. تقول مشيل بيرو : «يندرج هذا التاريخ ضمن مجال أوسع : أبحاث حول النساء وتباين الجنسين، وهي مسـألة تهم اليوم كل التخصصات التي تجد نفسها تتساءل حل مفهوم الكونية»[22]. لا يتعلق الأمر إذن بـ «سرد خطي لوضـعية النساء، بل بعرض في الأمـد الطويل للأشكال الاجـتماعـية والقـانونية والسـياسيـة والدينية والثـقافـية التي شيدت أنماطا خاصة من العلاقات بين الرجال والنساء»[23]. إنه تاريخ علائقي يصب في الحقل الرحب للتاريخ، تاريخ الإنسان.

ويعتبـر التأكيد على هذه المقـاربة التي تم توضيحهـا وتحليلها على نحو عميق في المشروع المذكـور، مسـألة في غـاية الحيـوية. إنها تمـثل تميزا صـريحا عـن الاتجاه الذي ظهـر لدى بعض الباحـثات النسائيات في بداية الثـمانينيات، حيـث راج الحديث عن "قطيعة ابسـتيمولوجـية". هذا ما نادت المدرسة النسائية الفرنسية إلى تجنبه لتفادي العزلة. فقد أوضحـت بيرو قائلة : «إن التوجه الفرنسي لتاريخ النساء يهدف إلى المضاهاة والتوغل لا إلى المجابهة والانشقاق»[24].

قـضيـة أخرى أسـاسيـة : تحديد بعض المقـولات الهامـة التي تصب في نفس المقـاربة. إن العاملين في هذا القطاع يميزون اليوم بين مفهومين رئيسيين لتحديد الجنسين :

1 ـ تحديد بيولوجي أو طبيعاني.

2 ـ تحديد ثقافي.

بتعبير آخر، التـمييز بين الجنس البيولوجي (le sexe) والجنس الثقافي،(le genre)، والتركيز بالخصـوص في البحث التاريخي على مـقاربة المفـهوم الثاني نـتاج علاقـات السلط، لأن المرأة كصورة تاريخية، كوضع اجتماعي، كواقع إشكالي هي ثمرة للسيطرة الرجالية[25].

هذا الجنس الثقـافي يجب التعـامل معه في تعـدديته. من هنا يفـضل الباحثـون في الغرب صيغة الجمع : النساء عوض المرأة، لأن الأوضـاع النسائية متعددة بالفعل ومتباينة : تعدد وتباين في الأطر الحضـارية (أو الثقافية كـما يقول الانثربولوجـيون)، في الحقب التاريخـية، في المواقع الاجتماعية، في الإسهامات الاقتصادية، في التمثلات، في الخطابات، الخ.

وأختم هذا العرض بما ورد في مقدمة "تاريخ النساء في الغرب" بقلم جورج دوبي ومشيل بيـرو : «إننا نحلم بتـاريخ للنسـاء في الشـرق وافريـقيـا، الذي على نسـاء ورجـال هذه البلدان كتابتـه، والذي سيكون بكل تأكيد، مغـاير لتاريخنا، لأنه يفترض نظرة مـزدوجة : نظرة حول أنفسهم ونظرة حولنا نحن"[26]. ولنحصر هذه الدعوة في مجال جغرافي محدد : المغرب. إننا حينـما نقرأ ونعـيد قـراءة هذا المشروع الضـخم ونتأمل مـختلف المراحل الزمنيـة والعلميـة التي قطعها تتبادر إلى أذهاننا مجموعة من التساؤلات حول إمكانية كتابة تاريخ النساء في المغرب؟ حول البعد المجالي، المغرب أو المغارب؟ حول الإجرائية الأكاديمية؟ حول الإمكانات المصدرية؟ حول التـراكم المفـاهيمي؟ إنهـا تساؤلات صـعبة حـقا، لكـنها قد تحـمل دعوة إلى المـؤرخات والمؤرخين للتفكير والتبصر في هذا الحقل التاريخي.

الهوامش

(1) Voir Nicole ARNAUD-DUC, Les contradictions du droit, in "Histoire des femmes en Occident", sous la direction de Georges DUBY et Michelle PERROT, vol. IV, Le XIX° siècle, Paris, Plon, 1991, pp. 86-116.

(2) Christiane KLAPISCH - ZUBER, Femmes, in Dictionnaire des sciences historiques, sous la direction de A. BURGUIERE, Paris, P.U.F., 1986, p. 282.

(3) Marguerite THIBERT, Le féminisme dans le socialisme français de 1830 à 1850, Paris, 1926.
(4) I.PINCHBECK, Women workers and the industrial revolution (1750-1850), Londres, 1930.
(5) Pour plus de détails sur le féminisme au XIX° siècle, son évolution, ses courants (Les "radicales" et les "reformistes ou "modérées", surtout sous la III République, voir Florence ROCHEFORT, l'égalité en marche. Le féminisme sous la III République, Paris, 1989.
(6) Histoire des femmes en Occident, Introduction au vol. IV, par G. FRAISSE et M. PERROT, pp. 13-14.
(7) Simone DE BEAUVOIR, Le deuxième sexe, Paris, 1949, 2 vol.
(8) Ch. KLAPISCH-ZUBER, op.cit, p. 383.
(9) A. FARGE et M. PERROT, Débat, in "Femmes et Histoires", colloque, Sorbonne 13-14 novembre 1992, Paris, Plon, 1993, p. 70.
(10) Voir surtout l'étude de Pierre GOBERT, Beauvois et les Beauvoisis, de 1600 à 1730, Paris, 1960, (édition abrégée : cent mille provinciaux du XVII siècle, Paris, Flammarion 1968), qui a marqué dans les années soixante un tournant historiographique.
(11) Philippe ARIES, Histoire des populations françaises et de leur attitude devant la vie depuis le XVIII siècle, Paris, éd. Self, 1948.
(12) G. BOURDE et H. MARTIN, Les écoles historiques, Paris, 1983, pp. 195 - 196.
(13) Ch. KLAPISCH - ZUBER, op.cit., p. 383.
(14) Propos recueillis lors d'un entretien avec Michelle PERROT le 8 décembre 1993 à Kénitra.
(15) Jean-Louis FLANDRIN, Les Amours paysannes, XVI-XIX siècles, Paris, 1975.
(16) F. LEBRUN, La vie conjugale sous l'Ancien Régime, Paris, 1975.
(17) J. SOLE, L'Amour en Occident à l'époque moderne, Paris,, 1976.
(18) J.L. FLANDRIN, Le sexe et l'Occident, Evolution des attitudes et des comportements, Paris, 1981.
(19) Michel FOUCAULT, Histoire de la sexualité, Paris, 1986, 3 vol.
(20) Histoire de la famille, sous la direction de A. BURGUIERE, CH. KLAPISCH-ZUBER, M. SEGALEN et F. ZONABEND, A. COLIN, Paris, 1986.
(21) Voir Histoire des femmes en Occident, 5 vol. Paris, Plon, 1990-1992.
(22) Femmes et histoire, colloque, p. 12.
(23) Ibid, p. 67.
(24) Ibid., p. 14.
(25) Ibid, p. 69, sur cette question voir encore "Sexe et genre, de la hiérarchie entre les sexes, édi. Marie-Claude·HURTIG, Michèle KAIL et Hélène ROUCHE, Paris, CNRS, 1991.
(26) Histoire des femmes en occident, vol. I, p. 16.